

مُحَمَّدٌ ﷺ

المثل الأعلى

للمؤرخ الإنجليزي

توماس كارليل

عربه

محمد السباعي

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة

ت. ٣٩٠٠٨٦٨١ - ٣٩١٩٣٧٧

رقم الإيداع ٥٣٢٢ / ١٩٩١  
التقديم الدولي I.S.B.N. 977-241-033-8

ذو الحجة ١٤١٣ هـ - مايو ١٩٩٣ م  
حقوق الطبع محفوظة لـ مكتبة الآداب ( علي حسن )

## فهرست الكتاب

٦	✽ كلمة الناشر .....
٨	✽ ترجمة المؤلف - وترجمة المترجم .....
١٠	من أكبر الممارسات إن محمدًا كذاب .....
١١	قلوب خبيثة .....
١٢	قوانين العظيمة - الرجل الكبير - إخلاصه .....
١٤	كلمات الرجل العظيم .....
١٥	هفوات الرجل العظيم .....
١٦	العرب وصفة جزيرة العرب .....
١٨	التدين في العرب - سفر أيوب كتب في بلاد العرب ...
١٩	الحجر الأسود والسكينة .....
٢٠	بشر زهرم - السكينة .....
٢٢	مولد محمد ونشأته .....
٢٣	سفره للشام والتقاءه بالراهب بحيرا .....
٢٤	أمية محمد .....
٢٥	صدق محمد منذ طفولته - الابتسام الصادق والكاذب ...
٢٦	هيشته المساداة وزواجه بخديجة .....

- ٢٧ محمد برىء من الطمع الدنيوى وعطاس ونافذ البصيرة . . . . .
- ٢٩ الرجل العظيم ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن . . . . .
- ٣٠ اختلاص محمد بنفسه وإعزاله الناس في رمضان . . . . .
- ٣٠ ابتداء البعثة . . . . .
- ٣١ حقيقة الإسلام وكنية جوته فيه — كلنا مسلمون . . . . .
- ٣٢ الوحى وجبريل . . . . .
- ٣٣ معنى كلمة محمد رسول الله . . . . .
- ٢٣ فضل السيدة خديجة وعلى وزيد بن حارثه . . . . .
- ٣٤ الدعوة إلى الإسلام — سرودة على ونجداته . . . . .
- ٣٥ استبلاء قريش من عمل محمد . . . . .
- ٣٦ نصيحة أبى طالب وعزيمة محمد — احتماله الشدائد . . . . .
- ٣٧ تأليب قريش على محمد ليقتلوه — هجرته إلى المدينة . . . . .
- ٣٨ الرد على القائلين بأن الإسلام انتشر بالسيف . . . . .
- ٣٩ لا يصح إلا الصحيح — عدل الطبيعة . . . . .
- ٤١ قضاء محمد على وثنية العرب والعقائد الفاشية في ملك الأيام . . . . .
- ٤٢ القرآن وإعجازه . . . . .
- ٤٣ الإخلاص من فضائل القرآن . . . . .
- ٤٤ الإخلاص منشأ الفضائل . . . . .
- ٤٥ القرآن محل أسرار الأمور — المعجزات في نظر الإسلام . . . . .
- ٤٧ الرد على متهمى الإسلام بالشهوانية . . . . .

٤٨	.....	برادة محمد من الشهوات وتواضعه وتشفه
٤٩	.....	مكررات محمد وأخلاقه
٥٠	.....	برادة محمد من الرياء والتصنع
٥١	.....	ما كان محمد بما يك
٥٢	.....	المساواة بين الناس — الزكاة — الجنة والنار
٥٣	.....	الصيام في الإسلام
٥٤	.....	منزلة الإسلام في قلوب المسلمين
٥٥	.....	تأثير الإسلام على العرب وفضلهم عليهم

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة الناشر

---

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ،  
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .  
أما بعد .. فإن المسلم وظيفته الحقيقية إقامة الحق ومقاومة الباطل .  
وإقامة الحق لها أوجه متعددة ، كما أن مقاومة الباطل لها أيضا  
أوجه متعددة .

وبين أيدينا هنا رسالة أراد صاحبها - وهو نهراني من أبرز  
شخصيات القرن التاسع عشر - وأعظم فلاسفة الإنجليز قاطبة ،  
أن يُبَيِّنَ بها سعةً ويُبَيِّهاً باطلا . فلقد هاله ما تعرضت له شخصية  
الرسول ﷺ من ظلم وظلم ، فبحث وتقصى حتى أدرك جوانب  
العظيمة ومواطن التقدير والإبرار في ذلك الذي « أدبه ربه فأحسن  
تأديبه » ، ففرض لها في موضوعية وحيدة جديران بالتقدير .

ولقد شجعنا ما وجدناه في هذه الرسالة من إنصاف ونزاهة مقصد  
إلى إعادة نشرها عن ترجمة المغفور له الأديب محمد السباعي .  
ولكن لفتنا أخطاء الطابع ، أن المؤلف ، وإن كنا لا نبخسه حقه

من الثناء على روعة فكره وصفاء ذهنه وروحته وشجاعته وصديق مقصده - قد وقع في بعض الأخطاء في تقييم الحقيقة الإسلامية ؛ إذ نزح في بعض فهمه إلى ما أشاعه بعض المستشرقين ومؤرخي الغرب المخربين من دس لبعض الأباطيل والآكاذيب التاريخية ، لذا فإنه وإن أدرك بعض جوانب عظمة الإسلام ، فقد غابت عنه جوانب أعظم . . لو علمها لسكان بما لمسته فيه من روح الإنصاف والحقائق الحق من كبار دعاة المسلمين .

ولقد رأينا عند إعادة نشر هذه الرسالة عن ترجمة الأديب محمد السباعي أن طبعها كما هي دون إضافة أو حذف أى حرف من النص الأصلي ، ولكن واجبتنا يقتضينا أن نعلق في الهامش على ما يستوجب تصحيح المفاهيم ، وإعادة الحق إلى نصابه ، وهداية الإنسانية إلى الحقيقة الخاتمة عنها الأوهى كلمة التوحيد .  
والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ؟

مكتبة الآداب

ذو الحجة ١٤١٣ هـ

مايو ١٩٩٣ م

## المؤلف

توماس كارليل: ١٧٩٥ - ١٨٨١

فيلسوف ومؤرخ وأديب انجليزي . من أبرز شخصيات القرن التاسع عشر . تأثر بجوانه وشيبار وترجم بعض أعمالهما . انتقد المجتمع الانجليزي في أول أعماله « سارتور رزادوتس » ، ١٨٣٤ .

ولقد آثر كارليل بأهمية ودور البطولات والشخصيات القيادية في صناعة التاريخ ولإصلاح المجتمع ، وكتب في ذلك كتابه « الأبطال والبطولة » ، البطولة في التاريخ سنة ١٨٤١ . وكان كارليل من أبرز شخصيات عصره وتأثر به الكثيرون من أمثال جون رسكن وماترو أرنولد .

## المترجم

محمد السباعي :

محمد بن محمد بن عبد الوهاب السباعي ، منتهى بليغ ، من كبار المترجمين عن الإنجليزية . وُلِدَ ووفاته بالقاهرة ١٢٩٨ - ١٣٥٠ هـ ١٨٨١ - ١٩٣١ م ترجم « الأبطال » توماس كارليل T. Carlyle وقصه مدينتين ، لادنز ( طبع )

و « بلاغة الإنشائيين » ثلاثة أجزاء ( طبع ) ويسمى مختارات لوين ، و « الزبينة » ( طبع ) استغمر . ورسائل لاديسون . ومقالة ماكولي جراف لاديسون أيها ( طبع ) . والسيمر والهور كلاهما مقالات ومذكرات ( طبع ) . وأبطال عصر في السياسة المصرية وبهذه رسائلها . وبعد وفاته جمع ابنه يومف السباعي ( الأديب والكاتب القاهري توفي ١٩٧٨ ) مائة قصة مما كتبه والده صاحب الترجمة أو نقله عن الإنجليزية وأشرفا في عمل واحد سنة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م



# البطل<sup>(١)</sup> في صورة رسول

محمد بن عبد الله

ننتقل الآن من تلك المصور الخشنة - هصور الوثنية الشمالية - إلى دين آخر في أمة أخرى - دين الإسلام في أمة العرب - وما هي إلا نقلة بسيطة وبن شامع ، بل أي رفعة وارتقاء نراه هنا في أحوال العالم العامة وأفكاره ١ .

في هذا الطور الجديد ، لم ير الناس في بطلمهم إلهاً ، بل رسولا يوحى من الإله ، وهذه هي الصورة الثانية للبطل ، فأما الأولى وأقدم الجميع فقد ذهبت إلى حيث لا تعود أبداً ، وإن ترى الناس يؤطهون البطل مهما عظم ، بل لنا أن نسأل أكان من أي ناس قط ، أنهم عبدوا إلى رجل يرونه ويلبسونه ، فقالوا هذا خالق السكون ؟ أنا لا أظن ذلك ، إنما يقولون هذا القول في رجل يتذكرونه ، أو كانوا رأوه ، هل أن هذا أيضا لن يكون قط ، وإن يؤلفه البطل من ثم فصاعداً ، ولو بلغ مستهى العظمة .

لقد كان اعتبار الرجل العظيم إلهاً غاطلة وحشية فاحشة ، ولكن فلمثل إن الرجل العظيم ما يرح في جميع الأزمان لغزاً من الألغاز ،

---

(١) الرسالة والنبوة عهدنا - معشر المساحين - أمر غير مكتسبه

بل هي وحي إلهي وهبة من الله . لذلك ليس لنا أن نستعمل - كساحين - هذه الألفاظ وإن استعملها المستشرق لأنها على قدر فهمه .

لا ندرى كيف نفسره ، ولا كيف نستقبله ونعامله ! ولعل أهم ما يابى  
جيل من الأجيال ، هو كيفية استقباله لرجله العظيم ، وسواء استقبلوه  
كإله أو كسبي ، أو كيهما كان ، فذلك هو السؤال الأكبر ، ومن طريق  
إجابتهم عن هذا السؤال وكيفية مذهبهم في ذلك الأمر ، يمكننا أن  
نبتصر صميم حالتهم الروحية كما لو كان من خلال نافذة .

فإن الرجل العظيم إذا كان مصدره واحداً - أعني من ذات الله ،  
فهو سندس واحد : « أودين » ، أو « لوثر » ، أو « جونسون » ، أو « بارنز » ،  
و أرجو أن أوفق إلى إفهامكم أن جميع هؤلاء من طينة واحدة ، وأنه  
لم يحدث الخلاف العظيم بين أحدهم والآخر ، إلا الهينة التي يكتسبونها  
هم ، أو الطريقة التي يستقبلها بها أهل زمنهم .

من أكبر العار القبول إن محمداً كذاب :

لقد أصبح من أكبر العار ، على أي فرد متمسك من أبناء هذا العصر  
أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع  
مزور ، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المنحولة  
فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر  
قرناً لتنهو مائتي مليون من الناس (١) أمثالنا ، خلقهم الله الذي خلقنا ،  
أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها ، وماتت عليها هذه  
الملايين الفاتمة الحصر والإحصاء أكذوبة وخذعة ؟ أما أنا فلا أستطيع  
أن أرى هذا الرأي أبداً ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله

(١) الآن أكثر من ألف مليون نسمة .

هذا الرواج ، ويصادف أن مفهوم مثل ذلك التصديق والقبول ، فالناس  
إلا به وبجانبين ، وما الحياة إلا سنف وعيب وأضلولة ، كان الأولى  
بها أن لا تخلق .

فوا أسفاه ما أسوأ هذا الزعم ، وما أضعف أهله وأحقهم بالرائة  
والمرحمة .

### قلوب خبيثة :

وبعد ، فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات أن  
لا يصدق شيئاً البتة من أقوال أوائل السفهاء ، فإنها نتائج جيل كفر  
وعصر جهود وإلحاد ، وهى دلائل على خبيث القلوب ، وفساد الضمائر ،  
وموت الأرواح فى حياة الأبدان ، وأهل العالم لم ير قط رأياً أكفر من  
هذا والام .

الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من الطوب .

فسكيف يوجد ديناً (١) ؟

ومل رأيت قط معشر الإخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً  
ويلبسه ، حجباً والله ، إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتاً من الطوب !  
فهو إذا لم يكن عليهما بخصائص الجهر والجهر والقراب وما شاكل  
ذلك فما ذلك الذى يبنيه بييت ، وإنما هو تل من الانقاض ، وكثيب  
من أسخاط المواد ، نعم ، وليس جديراً أن يبقى على دعائمه اثني عشر  
قرناً ، يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تنهار  
أركانه فينهدم كأنه لم يكن .

---

(١) الرسول ﷺ لم يوجد الدين ، وإنما هو مبلغ لهذا الدين .

### قوانين الطبيعة :

ولاني لأعلم أنه على المرء أن يسير في جميع أمره طبقاً لقوانين الطبيعة ، وإلا أبت أن نحيب طلبته وتعطيه بغيته ، وكذب والله ما يذيعه أولئك الكفار ، وإن زخرفوه حتى خيلوه حقاً ، وزور وباطل وإن زينوه حتى أومروه صدقاً ، وشبهه والله ، ومصاب أن ينخدع الناس شعوباً وأمتاً بهذه الأضاليل ، وتسود السكينة وتقود بها تيك الأباطيل ، وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها السكذاب حتى يخرجها من كفه الائمة ، ويحقق مصابها بالغير لابه ، وأى مصاب وأبيكم ؟ مصاب كهباب الثورة الفرنسية وأشبابها من الفتن والحن ، تصيح بملء أفواهها هذه الأوراق كاذبة !

### الرجل الكبير :

أما الرجل الكبير خاصة ، فإني أقول عنه يقيناً إنه من المحال أن يكون كاذباً ، فإني أرى الصدق أساسه وأساس كل ما به من فضل ومهودة ، وعندى أنه ما كان رجل كبير : - ميرابو ، أو نابليون ، أو بارنز ، أو كرمويل - كفوا للقيام بعمل ما إلا وكان المصدق والإخلاص وحب الخير أول باعثاته على محاولة ما يحاول ، أعنى أنه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شيء .

### الإخلاص للرجل الكبير :

بل أقول إن الإخلاص — الإخلاص الحر العميق الكبير — هو

أول خواص الرجل العظيم كيفما كان ، لا أريد إخلاص ذلك الرجل الذي لا يبرح يتمتع على الناس بإخلاصه ، كلا فإن هذا حقير جداً وأيم الله — هذا إخلاص سطحى وقبح — وهو في الغالب فرور وفتنة إنما إخلاص الرجل الكبير هو بما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه كلا ولا يشعر به ، بل لأسبب أنه ربما شعر من نفسه بعدم الإخلاص ، إذ أين ذلك الذي يحتاج أن يازم منهج الحق يوماً واحداً ؟ نعم ، إن للرجل الكبير لا ينخر بإخلاصه قط ، بل هو لا يسأل نفسه أي عفاضة ، أو بمباراة أخرى أقول إن إخلاصه غير متوقف على إرادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه ، سواء أراد أم لم يرد ، هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله — حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول ، هكذا خل الله ذهنه ، وخيانة ذهنه على هذه الصورة هي أول أسباب عظمته ، هو يرى الكون مهتماً وعظيماً وحقاً كاللوت ، وحناء كالحياة. وهذه الحقيقة لا تفارقه أبداً ، وإن فارقت منظم الناس فساروا على غير هدى ، وخبطوا في غياهب الضلال والحماية ، بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونسب عينيه كأنها مكتوبة بحروف من الذهب ، لا شك فيها ولا ريب ، ها هي ! ها هي — فاعرفوا هذاكم الله أن هذه هي أولى صفات العظيم ، وهذه حدة الجوهري وتعرفه ، وقد توجد هذه في الرجل الصغير ، فهي جديرة أن توجد في نفس كل إنسان خلته الله ، ولاكنها من لوازم الرجل العظيم ، ولا يكون الرجل عظيماً إلا بها .

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلاً أصلياً صافياً في الجوهر كريم العنصر

فهم رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة إلينا ، فقد نسجيه  
شاعراً أو نبياً أو إلهاً (١) ، وسواء هذا أو ذلك ، فقد نعلم أن قوله ليس  
بمأخوذ من رجل غيره ، ولكنه صادر من أبواب حقائق الأشياء ، نعم  
هو يرى باطن كل شيء ، لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب  
الاهتسارات والعادات والمعتقدات ، وسنضيف الأوهام والآراء ،  
وكيف وأن الحقيقة التسطع لهينه حتى يكاد يعشى لنورها .  
كلمات الرجل العظيم :

ثم إذا نظرت إلى كلمات العظيم ، شاعر أكان أو فيلسوفاً أو نبياً  
أو فارساً أو ملكاً ، ألا تراها ضرباً من الوحي (٢) أو الرجل العظيم في  
نظري مخلوق من مواد الدنيا وأشياء الكون ، فهو جزء من الحقائق  
الجوهرية للأشياء وقد دل الله على وجوده بعدة آيات ، أرى أن  
أحدثها وأجدها هو الرجل العظيم الذي عليه الله العلم والحكمة ، فوجب  
عليها أن نهني إليه قبل كل شيء .

وهل ذلك فلسفاً نهدد محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتدريج  
بالحيل والوسائل إلى بغية ، أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان ، أو  
غير ذلك من الحقائق والصفات ، وما الرسالة التي أداها إلا حق  
صراح ، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول (٣) ، كلا ما محمد

---

(١) هذا من الخلط الذي لا يسيغه المسلم .

(٢) الوحي الإلهي لا يكون إلا الأنبياء ومن طريق الملائكة  
وليس ككلام الشعراء أو الفلاسفة .

(٣) هذا على حد فقهه ، أما عندنا فهو مرسل من الله تعالى لا من  
العالم المجهول .

بالكاذب ولا الماتق وإنما هو قلعة من الحياة قد تنظر عنها قلب  
الطبيعية فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله ، وذلك  
فضل الله يؤتاه من إ شاء ، والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدمغ  
كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين .

### هفوات الرجل العظيم :

وهب محمد ( عليه السلام ) غلطات وهفوات — وأى إنسان  
لا يخطئ لما علمه الله و علمه — فإنه ليس له طاقة أية هفوات أو غلطات  
أن تورى بذلك الحنية العكبري ، وهي أنه رجل صادق ونبي مرسل .  
وأنا على العموم نجسم الهفوات ونجمل من الجزئيات جهماً تستر  
هنا المقائق السكينة — الهفوات ؟ أي حسب الناس أنه يخلو منها إنساناً ؟  
إن أكبر الهفوات عندى أن يحسب المرء أنه يرى من الهفوات ،  
ما بال الناس لا يذكرون نبي الله تارداً ؟ ألم يرتكب داود أفطع  
الجرائم وأشنع الآثام (١) ؟ ألا ما أهين أس الذنوب وأصغر خطور  
الاعلاط — الجزئيات والقشور — إذا كان لها كريمة وسرها حراً  
شريفاً ، وتلج في القوبة النصوح ، والندم الصادق ، ووخز الشميم ،  
ولذع الذكوة ، أكبر مكفر للحيثات ، ومطهر لأردان الروح من أدران  
الشوائب ، أليست الذوبة أكرم أعمال المرء طائفة وأقدس أفعاله ؟  
إنما الالم الذنب هو كما قلت حسبان المرء أنه يرى من كل ذنب ، وكل  
ففس هذا شأنها ، فبى في نظرى مطلقة من الوفاء والمروءة ، بعيدة  
عن النقي والبر والحق — أو هي مينة ، أو لن تشأ فقل هي نقيّة نقاء  
(١) هذا الزوال من أكاذيب اليهود وأضلاليهم التي أشاعوها  
بين الناس .

الزمل الجحافل الميت ، وإنى أحسب أن سيرة داود وتاريخه كما هو مدون في مواهبه (١) ، لأصدق آية على ارتقاء المرء في مدارج المكرمات ، وعلى حربه العقل والهوى — حرباً طالما ينهزم فيها العقل هزيمة تصدق بهجته جانبية ، وتتركه لتي (٢) مشفياً (٣) على الانقراض ، ولكننا نحرب بفهم نهاية مشفوعة أبداً بالهكاه والتوبة واستنهاض العزم الصادق ، الذي لا يبرح يتجدد بعد كل هزيمة .

يا ويل النفس الإنسانية ما أشد خبطها بين ضعفها وقوة شهواتها ، أو ليس معنى حياة الإنسان في هذه الدنيا سلسلة عثرات ؟ وهل في استطاعة المرء خلاف ذلك ؟ وهل يعطى في ظلمات هذه الحياة إلا الاعتساف والتخبط ؟ فما ينهض من هثرة إلا لآخرى ، وبين هذه وتلك نحيب وعبرات وشبهيق وزفرات ، ولما الأمر المهم هو : أياظر بهواه بعد كل هذه المجاهدات ؟ ولما لا تصفح عن كثير من الجزئيات ما دام اللباب حقاً ، والمسميم صحيحاً ، وما كانت الجزئيات وحدها لتصفنا حقيقة إنسان (٤) .

#### العرب وصفة جزيرة العرب :

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة ، تسكن بلاداً كريمة ، وكأما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق ، فكان تمت شبه قريب بين وعورة جبالها وعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم ، وكان يضاف من قسوة قلوبهم مزاج من الآين والدماثة ، كما كان يسلط من عبوس وجوه البلاد ، رياض شخصراء وقيعان ذات أمواه وكلاء ،

(١) سبق القول أن هذا افتراء لا يعتمد عليه .

(٢) ملقى . (٣) مقارب . (٤) هذا الكلام لا ينطبق على الأنبياء .



وكان الأعرابي صامتا لا يتكلم إلا فيما يعنيه ، إذ كان يسكن أرضا  
قفراً يبابا خرساء ، تخالها بحراً من الرمل يصطلي بحرة النهار طوله ،  
ويكافح بحراً وجهه نفحات القرّ ليله .

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت

فيمضى ، وأما بالعشى فيخصر

ولا أحسب أناساً شأنهم الانفراد وسط الهدم والتفار ، محادثون  
ظواهر الطبيعة ، ويماجون أسرارها إلا أنهم يكونون أذكياه القلوب ،  
حداد الخواطر ، شفاف الحركة ناطق النظر ، وإذا صبح أن الفرس  
هم فرنسيوا المشرق ، فالعرب لا شك طليانته ، والحق أقول لقد كان  
أولئك العرب قوماً أقوياء النفوس ، كأن أخلاقهم سيول دفاقة ، لها  
من شدة حميم وقوة إرادتهم أحصن سور وأمنع حاجز ، وهذه  
وأبيكم أم الفتنائل ، وذروة الشرف الباذخ ، وقد كانوا أحدهم يضيقه ألد  
أعدائه فيكرم مثواه وينحدر له ؛ فإذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله  
وشيمه ، ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم عن أن يقاتله متى عادت به إليه  
الفرص ، وكان العربي أغاب وقته صامناً ، فإذا قال أفصح .

ويزعمون أن العرب من عنبر اليهود ، والحقبة أنهم شاركوا  
اليهود في مرارة الجود ، وغالفهم في حلاوة الشمالك ، ورقة الظرف .  
وفي المعية الفريجة ، وأريحية السلب ، وكان لهم قبل زمن محمد ( عليه  
السلام ) منافسات في الشعر ، يجرونها بسوق عكاظ في جنوب البلاد ،  
حيث كانت تقام أسواق التجارة ، فإذا افتتحت الأسواق تداشد الشعراء  
القصائد ، ابتغاء جائزة تحمل للأجود قريناً ، والأحكم قافية ، فكان  
الأعرابي الجفاة ذوو الطباع الوعرة ، يرتاحون لغفات القصيد ،

ويجدون أرائهم أية لذة فيهما فتون على الماشد كالفراس ، ويتهاكون  
التدين في العرب :

وأرى لطفة العرب صفة من صفات الإسرائيليين واضحة فيهم .  
وأسمها ثمرة النضال جميعها والحمد لله تدينها إلا هو التدين ، فإنهم  
كانوا ، ما برحوا شمس يدى التمسك بدينهم كيفما كان ، كانوا  
يمجدون السكواكب وكثيراً من الكائنات الطبيعية ، يرونها مظاهر  
للخلاق ودلائل على عظمته ، فمن ذل أن يك خطا فلاس من جميع  
وجوهه ، فإن من نوعات الله ما برحت وجهه ما ، وزأله ودلائل عظيمه ،  
ألسنا كما قدمت نعتدها منخورة للشاعر وفهيله ، أن يكون يدرك  
ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال أو أسرار الجمال للشعوى ،  
كما اصطليح الأس على تسميته ؟ وقد كان طولاء العرب عدة أنبياء كلهم  
أستار قبيلته ومرشداها ، جميعاً يتنصرون به ، باغ عليه ورأي (١) ، ثم آيس  
لدينا من البراهين الساطعة ، ما يثبت لنا أى حكمة بليغة ورأى مسدد ،  
وأى تقوى وإسلام قد يكون طولاء البدو المفكرين ؟

سفر أيوب كتب في بلاد العرب :

وقد اتفق النقاد أن سفر أيوب ، أحد أجزاء التوراة كتابنا  
المتدس قد كتب في بلاد العرب . ورأى في هذا الكتاب فضلاً عن  
كل ما كتب عنه أنه من أشرف ما سطريراع ودوات يد كاتب (٢) ،  
ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين ، لما فيه من عمومية

---

(١) هذا خلل بين النبوة وبين زعامة القبيلة .

(٢) هذا اعتراف منه بأن الدورة مكتوبة لا منزلة .

الأفكار مع شرفها وسموها — غمر ميرة الخائف النهم صعب والتحنين ،  
 وحسب الكتاب شرفاً أن يكون يضرب بمرقى ن كل نفس ، ويمت  
 بمسألة إلى كل قلب ، ويكون كالبيت ينضى إليه منزهى السيل ، وكالآرج  
 الضائع (١) نلتنازع ، جميع الأنوف ، والكتاب المذكور هو أول ما جاءنا  
 عن مسألة المسائل : حياة الإنسان وفعل الله به في هذه الدار ، ووقه  
 أننا بذلك في أنصح يدان ، وأشد إخلاص ، وأحسن سهولة .

والتي لأتبعن فيه العين البعيدة ؛ والقلب النافذ الفهم ، الجهم  
 الطشوع ، فهو الملق من حيث سمته ، والنظر الراسب في قرارة كل شيء  
 وصميم كل أمر — مادي روحاني ، ألا تذكرون ما جاء فيه من ذكر  
 الفرس : والله الذي أودع الرعدة حنجرته (٢) ، وفعل ترى صديقه لإلفقه  
 لرؤية الرماح ، هذا والله أجود الاستمارة ، وما أحسب أن في عالم  
 التشبيه كل ما يماثل ذلك أو يقاربه ، ذلك في الكتاب المذكور من  
 آيات الحزن الشريف ، والنيكل الحسن الجميل ، وما قرأت فيه قط  
 إلا حسبت فيه قلب الإنسانية ترنم شجي ووجداً ، ودمع الإنسانية  
 يفيض حرقاً وكداً ، فيا لها من رقة في شدة ، ورأفة في قوة ، وما  
 أشدها إلا بسحر الليالي الصائبة رقة نسيم في جلال مشهود عظيم ، وإلا  
 بالكون وكل ما فيه من أنجم وبحار وليل ونهار ، وما أحسب أن في  
 جميع النوراة شيئاً يدانيه فضلاً وقيمة .

الحجر الأسود والسكبية :

والحجر الأسود كان من أعم معبودات العرب ، ولا يزال للكن

(١) ضاع المسك إذا انتشرت رائحته بقوة .

(٢) أى أودع في سنجرة الفرس قوة الرعد .

بمكة في البقاء المسمى « السكةبة » . وقد ذكر المؤرخ الرومانى « سيبلاس » السكةبة فقال : إنها كانت في مدته أشرف معايد العالم طراً وأقدمها ، وذلك قبل الميلاد بنعمسين عاما ، وقال المؤرخ « سلفستاردى ساسى » إن الحجر الأسود وبما كان من رجوم السموات ، فإذا صح ذلك (١) فلا بد أن إننا قد بهمر به سائطا من الجو ، والحجر موجود الآن الى جانب البيت زعم ، والسكةبة مبنية فوقهما .

### بئر زمزم :

والبيت كما تعلمون منظر حبيبا كان سار مفرح ، ينبس الماء من الحجر الأصم ، كالخياطة من الموت ، لما بالسك بها إذا كانت تفيض . ولقد اشتق لها اسمها « زمزم » من صوت تقجرها وهديرها ، والعرب تزعم أنها انبجست تحت أقدام هاجر وإسماعيل فيضاً من الله وشفاها ، وقد قادسها القرم ، والحجر الأسود ، وشادوا عليها السكةبة منذ آلاف من السنين .

### السكةبة :

وما أعجب هذه السكةبة وأعجب شأنها ؟ فهي في هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها السكوة السوداء التي يسهها الانسان كل عام ، يبلغ ارتفاعها سبعاً وعشرين ذراعاً حولها دائرة مزدوجة من الحديد وبها صفوف من المصابيح وبها نقوش وزخارف تعجيب ، وستوقد تلك المصابيح الليلة وتشرق تحمى الحجوم المشرفة ، فنعم أثر الماضي

(١) الحجر الأسود من حجارة الجنة كما أخبرنا الرسول ﷺ في

صحيح الحديث .

هي ونعم ميراث الغابر ، هذه كعبة المسلمين ، ومن أقصى المشرق إلى  
أخريات المغرب ، — من دلهى إلى مراکش تتوجه أبصار العديد  
المجهر من عباد الله المصابين شفاها ، وتمنوا قلوبهم بنحوها ، خمس مرات  
هذا اليوم وكل يوم ، نعم لى والله من أجل مراكز المعجورة وأشرف  
أقطابها .

ومن شرف البئر زهزم ، و قدسية الحجر الأسود ، ومن حج  
القبائل إلى ذباك المسكن كان منشأ مدينة مكة ، ولقد كانت هذه المدينة  
وقتاً ما ذات بال وشأن ، وإن كانت الآن قد فقدت كثيراً من أهميتها (١) ،  
وموقعها من حيث هي مدينة سيى جداً ؛ إذ هي واقعة في بطن من  
الأرض كثير الرمال ، وسط هضاب قفرة ، ونلال بحدبة ، على مسافة  
بعيدة من البحر ، يتنازلها جميع ذخائرها من جهات أخرى حتى الحزن ،  
ولسكن الذي اضطر إلى إيجاد هذه المدينة هو أن كثيراً من الحجاج  
كافوا يطالبون الماء ، ثم إن أما كن الحج ما زالت من قديم الزمان  
تسند هي التجارة ، فأول يوم يأتى فيه الحجاج تلتقى فيه التجار كذلك  
والباعة ، والناس متوجدون أنفسهم يجتهدون لغرض من الأغراض ، رأوا  
أنه لا بأس عليهم أن يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع ، وإن لم  
يسكن في الحسبان ، لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب بأجمعها ،  
والمركز لسكن ما كان من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر ، بل  
وبين إيطاليا . وقد بلغ سكانها في حين من الأحيان مائة ألف نسمة  
بين هائمين ومشتريين وموردين لبضائع الشرق والغرب ، وباعة

---

(١) بل لم تفقد قيمتها في أفئدة المسلمين .

للساكنات والغلل ، وكانت حكومتها ضرباً من الجمهورية  
الارستوقراطية ، عليها صبغة دينية ، وذلك أنهم كانوا يذهبون لها  
بطريقة غير منظمة ، عشرة رجال من قبيلة عظمى ، فيكون هؤلاء  
حكام مكة وحراس السكبة ، وكانت القرى في عهد محمد ( وأسرة  
محمد من قبيلة قرىش ) وكان سائر الامة مبدداً في أنحاء تلك الرمال ،  
قبائل تفصل بين الواحدة والأخرى البعيد والنفار ، وعلى كل قبيلة أمير  
أو أمراء . وربما كان الأمير راعياً أو ناقل امتعة ، ويكون في الغالب  
غازياً . وكانت الحرب لا تخدم بين بعض هذه القبائل وبعضها ،  
ولم يك يؤلف بينهم حلف على إلا التقاؤهم بالسكبة ، حيث كان  
يجمعهم على اختلاف وثنيتهم مذهب واحد ورابطة الدم واللغة ، وعلى  
هذه الطريقة عاش العرب دهوراً خاملة الذكر فامضى الشأن - أناساً  
ذرى مناقب جليلة وصفات كبيرة ، ينتظرون من حيث لا يشعرون ،  
اليوم الذي يشاد فيسه بذكرهم ويثير في الأفاق صيحتهم ،  
ويرتفع إلى عنان السماء صوتهم ، وما ذلك ببعيد ، وكأنما  
كانت وثنيتهم قد وصلت إلى طور الاضمحلال ، وأذنت بالسقوط ،  
وقد حدثت بينهم دواعي اختلاط وفوران ، وكان قد بلغهم على مدى  
القرون غوامض أنباء عن أكبر سعادة وقعت على وجه البسيطة —  
أعني حياة المسيح ووفاته (١) وهي التي أحدثت انقلاباً هائلاً في جميع  
سكان العالم — فلم تعد هذه الأنباء تأثيرها من الفوران في أحشاء  
الامة العربية .

مولد محمد ونشأته :

وكان بين هؤلاء العرب الذي تلك حالهم ، أن ولد محمد ( عليه  
(١) الصحيح دفعه كما أخبرنا القرآن .

السلام) عام ٥٨٠ ميلادية ، وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش ، وقد مات أبوه عقب مولده ، ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه . وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل ، فقام عليه جده وهو شيخ قد فاضل المائة من عمره وكان عالماً باراً ، وكان ابنه عبد الله أحب أولاده إليه ، فأبصرت عينه الحرمة في محمد هورة عبد الله ، فأحب اليقيم الصغير بقلبه ، وكان يقول يلبنى أن يحسن القيام على ذلك الصبي الجليل ، الذي قد فاق سائر الأسيرة والقبيلة حسناً وفضلاً ، ولما حضرت الشيخ الوفاء والغلام لم يتجاوز العامين ، عهد به إلى أبي طالب أكبر أعمامه رأس الأسيرة بعده ، فرباه عنه . وكان رجلاً عاقلاً كما يشهد بذلك كل دليل - على أحسن نظام عربي .

سفره للشام والتقاؤه بالراهب بحيرا :

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه في أسفار تجارية وما أشبه . وفي الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً متاعلاً يتبع عمه في الخروب (١) ، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذلك الذي حدث قبل هذا التاريخ بهضبة سبعين - رسالة إلى شارف الشام ، إذ وجدته التقى نفسه هناك في عالم جديد ازاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جداً في نظره ، أدنى الديانة المسيحية (٢) ، وإلى اسم أدري ما ذا أقول عن ذلك الراهب سرجيوس بحيرا ، الذي زعم أن أبا طالب ومحمد أ سكتنا معه في دار ، ولا ماذا

(١) حرب الفجار ، حرب كانت بين قريش ومن مقما من كنانة وقيس عيلان وكان النبي ﷺ في العشرين من حين حضر هذه الحرب مع عمومتة . (٢) هذا من العهد الرفيع ؛ فإن النبي ﷺ ذهب مع عمه إلى طائب الذي ذهب للتحجارة ، وكان بحيرا على عقيدة أن عيسى رسول الله ، وبشر أبا طالب بأن من معه هو خاتم الرسل .

هسهه يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أى راهب ما (١)، فإن محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشر ، ولم يعرف إلا لغته ، ولا شك أن كثيراً من أحوال الشام ومشاهداتها لم يكن في نظره إلا خليطاً مشوشاً ، من أشياء يفكرها ولا يفهمها والسكن النلام كان له عينان ، ثاقبتان ، ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشؤون ، فأقامت في ثاها ضميره ولو غير مفهومة ريثما ينتضجها له كرم الغداة ومر المشى ، وتصلها له يد الزمن يوماً ما ، فتخرج منها آراء وعقائد ، ونظرات نافذات ، فاعمل هذه الرحلات الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير ، وفوائد جمة .

#### أمية محمد :

ثم لا ننسى شيئاً آخر ، وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً ، وكانت صناعة الخط حديثه العهد إذ ذاك في بلاد العرب ، ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة ، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها ، وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينه ، ويتلقاه بفؤاده ، من هذا السكون العديم النهاية ، وعجيب وأيم الله أمية محمد ، نعم أنه لم يعرف من العالم ، ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه ، أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب ، ولم يضره ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم ، لا قديمها ولا حديثها ، لأنه كان بنفسه غنياً عن كل ذلك ، ولم يقتبس محمد من نور أى إنسان آخر ، ولم يغترف من مشاهد غيره ، ولم يكن في جميع أشباهه من الأنبياء

---

(١) كانت حياته ﷺ وصباه ورحلاته وخبيراته وتجاوبه تهمة تلقية الوحي وتربية له ، وليس له في ذلك من معلم إلا الله .



والعطاء - أرائك الذين أشبههم بالمصابيح الهادئة في ظلمات الدهور -  
من كان ابن عمده وبينه أدنى صلة ، وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء  
الصحرأ ، ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفساره .  
صدق محمد منذ طفولته :

ولوحظ عليه منذ فتأته (١) أنه كان شاكراً ، وقد سماه رفقاؤه  
الأمين - رجل الصدق والوفاء - الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره ،  
وقد لاحظوا أن ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة ، ولأن  
لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت ، يسكت حيث لا موجب للكلام ،  
فإذا نطق ، فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة ، لا يتناول  
غرضاً فيتركه إلا وقد أثار شبهته ، وكشف ظلمته ، وأبان حقيقته ،  
واستثار دفينته ، وهكذا يكون الكلام وإلا فلا ، وقد رأينا طول  
حياته ، رجلاً راسخ المبدأ ، صارم المزم ، بعيد الهمة ، كريماً جراً  
وموا تقياً فاضلاً حراً - رجلاً شديد الجهد مفصلاً ، وهو مع ذلك  
سهل الجانب ، لين العريكة (٢) ، جهم البشر (٣) والطلاقة ، حميد العشرة ، حلو  
الإيناس ، بل ربما مازح وداعب .  
الابتسام الصادق والكاذب :

وكان على العموم تقضى وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق ،  
لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله -  
هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا ، وكان محمد جميل الوجه وضوء الفألدة  
(١) أى فتوته . (٢) لين : يسكون اللان أى يستعمل الرقة .  
واللين رغم قوته . (٣) أى بشوش .

حسن القامة ، زاهى اللون (١) ، له عينان سوداوان ، تنالآن ، وإني لأحسب في جبينه ذلك العرق الذى كان ينفخ ويسوك في حال غضبه كالعرق المقوس الوارد في قصة القفازة الجراء لوالتر سكوت ، وكان هذا العرق خصيصة في بنى هاشم ، واسكنه كان أبين في شمد وأظهر ، نعم لقد كان هذا الرجل ساد الطابع ، نارى المزاج ، واسكنه كان عادلا صادق النية ، كان ذكى اللب ، شهم القواد :

لو ذعياً كأنما بين جنينيه مصابيح كل ليل جيم  
 مثلثاً ناراً ونوراً ، رجلاً عظيماً بفطرته ، لم تشقه مدرسة ،  
 ولا هذبه معلم ، وهو غنى عن ذلك كالأشوك استغنت عن التفتيح ،  
 فأدى عمله في الحياة وحده في أعوان الصجره .

عيشته الهائلة وزواجيه بخديجة :

وما ألت وما أوضح قصته مع خديجة ، وكيف أنه كان أولاً يسافر في قهجات لها إلى أسواق الشام ، وكيف كان يشرع في ذلك أقوم مناهج الحرم والأمانة ، وكيف جعل شكرها له يزداد ، وحبها يتمو ، ولما زوجت منه كانت في الأربعين ، وكان هو لم يتجاوز الخامسة والشرين وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحه ، ولقد عاش مع زوجته هذه على أتم وفاق ، وألفة وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب وحدها .

وبما يطال دعوى الممانين ( أن محمداً لم يكن صادقاً في رسالته بل كان ملفقاً مزوراً ) أنه قضى عتوان شبابه ، وحرارة صباه ، في الملك

(١) كان ﷺ أزهر اللون .

للعيشة المادية المطمئنة ، لم يحاول أنهاء إحداث ضجة ولا دوى ،  
 بما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ، ولما يك إلا بعد الأربعين  
 أن تحدث برسالة سماوية ، ومن هذا التاريخ تبتدى حوادثه وشواذه ،  
 حقيقة كانت أو مختلفة (١) ، وفي هذا التاريخ توفيت خديجة ، نعم لقد  
 كان حتى ذلك الوقت يقتنع بالعيش المادى الساكن ، وكان حسبه من  
 الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه ، وجميل ظفونهم به ، ولم يك  
 إلا بعد أن ذهب الشباب ، وأقبل المشيب ، أن فار بصدره ذلك  
 البركان الذى كان هاجعا ، وثار يريد أمراً جليلاً وشأناً عظيماً .

محمد برى من الطمع الدنيوى :

ويؤيد المقصعون من النصارى والملاحدون أن محمداً لم يكن يريد  
 بقيامه إلا الشهرة الشخصية ، ومنما خراجاه والسلطان ، كلاهما لم الله ،  
 لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن الفجار والفوات ، المتوقد  
 المتلذذ ، المتلذذ النفس ، المملوء راحة وخير ، وحناناً وبراً ، وحكمة  
 وحجى (٢) ، وأربة ونهى — أفكار غير الطمع الدنيوى ، ونوايا خلاف  
 طالب السلطة والجاه .

محمد مخلص نافذ البصيرة :

لا يرضى بالاصطلاحات السكاذبة  
 وكيف وتلك نفس صامدة كهيبة ، ودجل من الذين لا يمكنهم  
 إلا أن يكونوا مخلصين جهادين ، فيبتلى آخرى يرضون بالاصطلاحات

(١) أى سواء حدثت أو اختلقتها عليه قریش .

(٢) الحجى : العقل .

الكاذبة ، ويسرون طبق الاعتبارات الباطلة ، إذ ترى عمداً لم يرض أن يلتفت بمألف الكاذب ويتوشح بمتبع الأباطيل ، لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة ، وبحقائق الأمور والسكائنات ، لقد كان سر الوجود يستطيع لعينيه كما قلت بأهواله وغوافه ، ورواقفه ومباهره ، لم يك هنا لك من الأباطيل ما يوجب ذلك عنه ، فكأن لسان حال ذلك السحر المائل يفتاحيه « ها أنا ذا » فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى لمحيى مقدس ، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة ، فإذا تكلم فشكل الأذان برغمها صاغية ، وكل القلوب واعية ، وكل كلام ما هذا ذلك هباء وكل قول جفاء ، وما زال منذ الأعوام الطوال - منذ أيام رحلاته وأسفاره يحول بخاطره آلاف من الأفكار: ماذا أنا ؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذي أعيش فيه ، والذي يسميه الناس كوناً ؟ وما هي الحياة ؟ وما هو الموت ؟ وماذا أعتقد ؟ وماذا أقول ؟ فهل أجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شماميخ طود الطور ، أو تلك القفار والفلوات ؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار ، واختلاف الليل والنهار ، ولا النجوم الزاهرة ، والأنواء الماطرة ، لم يجبه لا هذا ولا ذاك ، وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل والاما أودع الله فيه من سره !

ومنا ما ينبغى لكل إنسان أن يسأل عنه نفسه ، فقد أحسن ذلك الرجل القفرى ، أن هذه كبرى المسائل ، وأهم الأمور ، وكل شيء من الأهمية في جانبها ، وكان إذا بحث عن الجواب في فرق اليونان

المجدلية أو في روايات اليهود المبهمة، أو نظام وثنية العرب الفاسد لم يجدده.

الرجل العظيم ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن ولا يتعبد

بالمعادن والتقاليد :

وقد قلت لمن أهم خصائص البطل ، وأول صفاته وآخرها هي أن ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن ، فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات فيذهبها ، جديدة كانت أو رديئة ، وكان يقول في نفسه : « هذه الأوثان التي يعبدها القوم لابد من أن يكون وراءها ودونها شيء ما هي إلا رمز له <sup>(١)</sup> ، وإشارة إليه ، وإلا فهي باطل وزور وقطع من السلب لا تندر ولا تنفع » وما لهذا الرجل والأصنام ! وأنتى تؤثر في مثل أوثان ولو مرصعت بالنجوم لا بالذهب ، ولو عبدها الجميع <sup>(٢)</sup> من عدنان ، والآقيال <sup>(٣)</sup> من حمير <sup>(٤)</sup> ؟ أى خير له في هذه وأوعدها الناس كافة ؟ لأنه في بلادهم في واد ، هم يعبدون في ضلالهم وهو ماثل بين يدي الطبيعة قد سطعت أعمى الطبيعة الهائلة ، فإذا إن يجيئها ، وإلا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين . فاتجيبها يا محمد ! أجب لابد من أن توجد الجواب ، أيزعم السككاذبون أنه الطمع وحسب الدنيا هو الذي أقام عمداً وأثاره ؟ حق وأيم الله وسخافة وهو س هذا الزعم ، أى فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب ، وفي تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالارض من

(١) ما كان <sup>من الآلهة</sup> يظن أن وراء الأصنام شيئاً ، وإنما كانت حديدته أنها باطل . (٢) جمع جمعها وهو السيد (٣) جمع قيل وهو الملك .

(٤) بكسر الحاء وسكون الميم ملوك اليمن .

تليجان وصورالجنة ، رأين تصدر الممالك والانيجان والذيل جميعها بعد  
حين من الدهر ؟ أفي مشيخة مكة ، وفة شيب منفض العارف ، أوفي ملك  
كمري وتاج ذهبي الثوبية ، منجاة للمرء ومظرة ؟ كلا - لاذن فلنصرب  
صفحة عن مذهب الجاثون القائل لن محمدأ كاذب ولدنمت مرافقهم  
حاراً وسبة وسخافة وحمقاً وانربأ بنفوسنا عنه ولنرفع .

اختلام محمد بنفسه واعتزاله الناس في شهر رمضان :

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان ، فينتقطع إلى  
السكون والوحدة ، دأب العرب عاداتهم ، ونعمت العادة ، ما أجل وأنفع ،  
ولا سيما لرجل كمحمد ، لقد كان يخلو إلى نفسه فيناجي ضميره ، صامعاً  
بين الجبال الصامته متفتحاً صدره لأصوات السكون العائمة الخفية ،  
أجل حبذا تلك عادة ونعمت .

ابتداء البشارة :

فلما كان في الأربعين من عمره ، وقد خلا إلى نفسه في نار جهنم  
( حرام ) قرب مكة شهر رمضان ، لينسكن في تلك المسائل الكبرى ،  
إذا هو قد خرج إلى خديجة ذات يوم وكان قد اصحابوا ( ١ ) ذلك العام  
وأُنزلها قريباً من مكان خلوقه ، فقال لها إنه بفعل الله قد استجلى  
فأبصر السر ، واستثار كامن الأرض ، وأنه قد أنارت الشبهة ، وأجلى  
الشك وبرح الخفاء ، وأن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أختبايا  
حقيرة ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فوالحق وكل ما خلاه  
باطل ، خلقتنا وبرزقنا ، وما نحن وسائر الخلق والكانات إلا ظل له

( ١ ) أي بعد زواجه منها .

وستار يحجب النور الابدي ، والرواق السرمدي ، الله أكبر  
ولله الحمد .

### حقيقة الإسلام وكلمة ( جوته ) فيه :

ثم الإسلام وهو أن نسلم الأمر لله ، ونذعن له ونسكن إليه ونترك  
عليه ، وأن القوة كل القوة هي في الاستقامة لحكمه والخضوع لحكمته ،  
والرضا بقسمته ، أية كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة ، ومهما يصيبنا  
به الله ولو كان الموت الزوام ، فلننازله بوجه مبسوط ، وننسى مقتضاته ،  
راضية ، ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو .

### كلنا مسلمون :

واقدر قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم ( جوته ) : « إذا كان ذلك  
هو الإسلام ، فكأنما إذن مسلمون » نعم كل من كان فاسلاً شريفاً ،  
الخلق فهو مسلم ، وقدماً قبيلاً ، أن منتهى العقل والحكمة ليس في مجرد  
الإذعان للضرورة . فإن الضرورة تخضع المرء برغم أنه ، ولا فضل  
فيما يأتيه الإنسان مكرماً - بل في اليقين بأن الضرورة الالهيّة المنة  
هي خير ما يقع للإنسان ، وأفضل ما يناله ، وإن الله في ذلك حكمته  
تلطف عن الأفهام وتدق عن الأذهان ؛ وأنه من الآف والسخف أن  
يجعل الإنسان من دماغه المنديل ، حينئذ لذلك العالم وأحواله ، بل  
عليه أن يعتقد أن للسكون قانوناً عادلاً ، وإن غاب عن إدراكه ، وأن الخير  
هو أساس السكون والصلاح روح الوجود ، والفتح لباب الحياة ، نعم  
عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه في سكوت وتقوى .

أقول وما زالت هذه الخطة المثلى ، والمذهب الأشرف الأطهر ، وما زال الرجل مصيباً وظافراً ، وحرّاً وكريمّاً وسائراً على المنهج الأقوم وسالكاً سبيل السعادة ، وما دام معتصماً بمحبل الله ، متمسكاً بقانون الطبيعة ، الأكبر الأمكن ، غير مبال بالتوائين السطحية ، والظواهر الوقتية ، وحسابات الربح والخسارة ؛ فهو ظافر إذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهري - قطب رحي السكون ومحور الدهر - وليس بظافر إذا فعل غير ذلك ، وحقاً إن أول وسيلة تؤدي إلى اتباع هذا القانون هو الاعتقاد بوجوده ثم بأنه صالح ، بل لا شيء غيره صالح ؛ وهذا يا إخواني هو روح الإسلام ؛ وهذا هو أيضاً روح النصرانية ، والإسلام لو تفقهون ضرب من النصرانية : والإسلام والنصرانية يأمراننا أن نتوكل على الله قبل كل شيء (١) ، وأن نهبط النفس عن الشهوات ونهني القلب عن الهوى ، وأن لا نهجمح في عنان المني ، وأن نهبط على البهت والأسى ، وأن نعرف أننا لا نعرف شيئاً ، وأن نرضى من الله كل ما قسم ، ونعدّها يداً بيضاء ، ونعده غرام ، ونقول الحمد لله على كل حال وتبارك الله ذو الفضل والجلال ، ونقول : « إنا بقسمة الله راضون ، ولو كان ما قسم لنا المشون » .

#### الوحي وجبريل :

فن فضائل الإسلام : تضحية النفس في سبيل الله ، وهذا أشرف ما نزل من السماء على بنى الأرض ، نعم هو نور الله قد سطع في روح ذلك الرجل ، فأدار ظلماتها ، ورضيها بأمر ، ككيف تلك الظلمات التي

---

(١) الأصح أن النصرانية الصحيحة هي الإسلام دين عيسى عليه السلام .



كانت تؤذن بالحسرة والهلاك، وقد سماه (١) محمد (عليه السلام) وحياً  
 و (جبريل) ، وأيضاً يستطيع أن يحدث له اسماء؟ ألم يسمي في الإنجيل أن  
 وسى الله يهبنا الفهم والإدراك؟ ولا شك أن العلم والفناذ إلى صميم الأمور  
 وجواهر الأشياء ليس من أغصان الأسرار لا يكاد المنطقيون يلمسون  
 منه إلا قشوره ، وقد قال نوقليس : ( أليس الإيمان هو المعجزة  
 الحقة الدالة على الله ؟ ) فشعور محمد اذا اشعلت روحه بلهب هذه  
 الحقيقة الساطعة ، بأن الحقيقة المذكورة هي أهم ما يجب على الناس علمه  
 لم يك إلا أمراً بديهياً .

معنى كلمة محمد رسول الله :

وكون الله قد أنعم عليه بكشفها له ، ونجاء من الهلاك والظلمة ،  
 وكونه قد أصبح معطراً إلى إظهارها للعالم أجمع - هذا كله هو معنى  
 كلمة ( محمد رسول الله ) وهذا هو الصدق الجلي والحق المبين .

فضل السيدة خديجة ، وعلی ، وزید بن حارثة :

وتخيل الينا ان الصالحة حديجة أصغت إليه في دهشة وشك ، ثم آمنت  
 وقالت « أي ربي إنه الحق » وتخيّل أن محمداً شكر لها ذلك الصنيع .  
 ورأى أن في إيمانها بكامله المخصوصة المأذونة من بركان صدره ، جليلاً يفوق  
 كل ما آسدت إليه من قبل ، فإنه ليس أرواح النفس المرء ، ولا ألاج لحشاه  
 من أن يجد له شريكاً في اعتقاده ، ولقد قال نوقليس : « ما رأيت شيئاً قط  
 أكد لي يقيني ، وأوثق لا اعتقادي من انضمام إنسان آخر إلى رأيي ، نعم »

(١) بل لم يسمه محمد ﷺ وحياً ، وإنما هو وحى الله .

لأنه لصنيع أغرّ ، ونعمة وفيرة ، وكذلك ما أنفك محمد يذكر خديجة حتى لقى ربه ، حتى أن عائشة — زوجته الصغيرة المحبوبة تلك التي اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها — هذه السيدة البارة الجمال والفضيلة ، سألته ذات يوم : « أليس الآن أفضل من خديجة ؟ لقد كانت أرملة مسنة قد ذهب بها الهاء ، وأراك تحبني أكثر مما كنت تحبها : » فأجاب محمد : « كلا والله ، لست أفضل منها وكيف وهي التي آمنت بي والسكل كافر ومكبر ، ولم يك لي في هذا العالم إلا صديق واحد — وهذا الصديق هي . » وقد آمن به مولاه زيد بن حارثة ، وعلى ( عليه السلام ) ، وهؤلاء الثلاثة أول من آمن به .  
الدعوة إلى الإسلام وما قاله محمد في سبيلها :

وجعل يذكر رسالته لهذا ، ولذلك ، فما كان يصادف إلا جوداً وسخية ، حتى أنه لم يؤمن به في خلال ثلاث أعوام إلا ثلاثة عشر رجلاً وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع ، ولكنه المنة نظر في مثل هذه الحال . وبعد هذه السنين الثلاث أدب<sup>(١)</sup> ما ذب لأربعين من ذوي قرابته ، ثم قام يلهم خطيباً ، فذكر دعوته وأنه يريد أن يذيعها في سائر أنحاء الكون وأنها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة ، فأبهم يمد إليه يده . وبأخذ بنصره ؟

مروءة على وجدته :

وبينا القوم صامتون حيرة ودهشة وثب على ( كرم الله وجهه ) - وكان غلاماً في السادسة عشرة - وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصرح

(١) أدب بفتح الالف والدال : صنع طعاماً ودعا إليه الناس .

في أحد طحمة ، أنه ذاك النضير والظهير ، ولا يحتمل أن القوم كانوا  
منازين محمداً ومعاذيه ، وكامهم من ذوى قرابته ، وفيهم أبو طالب  
هم محمد وأبو علي ، ولكن رؤية رجل كمل أمي يعينه غلام في السادسة  
عشرة يقومان في وجه العالم بأجمعه ، كانت مما يدعوا إلى العجب المصنوع  
فانفض القوم ضاحكين ، ولكن الأمر لم يك بالمصنوع ، بل كان نهاية  
في الجدة والخطر ، أما هل فلا يسعنا إلا أن نحبه ونعشقه ، فإنه فوق  
شريف القدر ، كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبراً ، ويناطى فؤاده  
نجدة بحاسة ، وكان أشجع من ليث ، ولكنها شجاعة بروحة برقة  
والعاف ، ورأفة وحنان ، يجدير بها فرسان الهليص في القرون الوسطى ،  
وقد قتل بالكوفة خيلة ، وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله ، حتى  
حسب كل إنسان عادلاً مثله ، وقال قبل موته حينما أومر في قتاله :  
« إن أعش فالأمر لي ، وإن أمت فالأمر لكم ، فإن آثرتم أن تقتصوا  
فضربة بضربة ، وإن تعفوا أقرب إلى التقوى » .

#### استيلاء قريش من عمل محمد :

وكان في عمل محمد هذا إساءة ولا شك إلى قريش ، حراس السكينة  
وخدمة الاصنام ، وانضم إليه منهم رجالان أو ثلاثة أولوبأس ونفوذ  
وسرى أمر محمد ببطء واسكنه سريان على كل حال ، وكان عمله بالطبع  
مهم الواقع لدى كل إنسان ، وجعلوا يقولون من هذا الذي يزعم أنه  
أعقل منا جميعاً ؟ والذي يعفينا ويرمينا بالحق وعبادة الخشب ؟

### نصيحة أبي طالب وعزيمة محمد :

وأشار عليه أبو طالب أن يكتم أمره ويؤمن به وحده ، وأن يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم ، وأن لا يسهط القوم ويشير غفبيهم عليه فيختار (١) بذلك حياته ، فأجاب به محمد : در الله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أوه أهلك فيه ما تركته ، كلا فإن في هذه الحقيقة التي جاء بها ، شيئاً من عنصر الطبيعة (٢) ذاتها ، لا تفضله الشمس ولا القمر ، ولا أي مصنوعات الطبيعة ، ولا بد لتلك الحقيقة من أن تظهر ، برغم الشمس والقمر ، مادام قد أراد أن تظهر ، ويرغم قريش جميعها ، وبكره سائر الأتقي والكائنات ، نعم لا بد من أن تظهر ، ولا يسعها إلا أن تظهر ، بذلك أجابه محمد ، ويقال إنه : اغرورقت عيناه ، اغرورقت عيناه لقد أحس من عمه البر والشفقة ، وأدرك وعورة الحال ، وعلم أنه أمر ليس بالهين اللين ، ولكنه أمر صعب المراس مرّ المذاق .

### مواصلة محمد الدعوة واحتماله الشدائد :

واستمر يردى الرسالة إلى كل من أصغى لآله ، ويشهر مذهبه بين الجميع ، مدة إقامتهم بمكة ؛ ويستميل الأتباع هنا وهناك ، وهو ياتي أثناء كل ذلك منابذة ومناوأة ، ومناصبة بالمداوة ، وبجاهرة وشرأ باديأ وكامناً ؛ وكانت أقاربه تحميه وتدافع عنه ؛ ولكنه عزم هو وأتباعه على الهجرة إلى الحبشة ، فوقع خبر ذلك المزم من قريش أسوأ موقع ، (١) أي يهرض سبحانه للخيار . (٢) بل هي من مخلوقات الله .

وضاعفت حنتهم عليه فنصبوا له الأشرار ؛ وبشوا له الحبائل ؛ وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمداً بأيديهم ؛ وكانف خديجة قد توفيت وتوفي أبو طالب ؛ وتعلمون أصلاً أن محمداً ليس بحاجة إلى أن نرث له وللملأه السكراء إذ ذاك ومقامه الضيق ، وموقفه المحرج ؛ ولكن اعرفوا معنى أن سألته إذ ذاك من الشدة والبلاء لم ير مثلها لإنسان قط ؛ فلقد كان يفتني في الكهوف ويفر متفكراً إلى هذا المكان ؛ إلى ذاك ؛ لا مأوى ولا مجر ؛ ولا ناصر ؛ تهدده الهلكات ؛ وتفخر له أفراسها المنايا ؛ وكان الأمر يتوقف أحياناً على أدنى صغيرة - كما جنال فرس من أفراس أتباع محمد - فلو حدث ذلك لضاع كل شيء ؛ ولكن أمر محمد - ذلك الأمر العظيم ما كان لينتهي على مثل تلك الحال .

تألب قریش علی محمد لیتقلوه ، وهجرتہ إلى المدينة :

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته ؛ وقد وجد أعداءه متألبين عليه وكانوا أربعين رجلاً ؛ كل رجل من قبيلة ؛ اتعمروا به لیتقلوه وألني المقام بمكة مستحيلاً ، هاجروا إلى يثرب حيث التف به الأنصار ، والبلدة تسمى الآن « المدينة » أي مدينة النبي ، وهي من مكة على ٢٠٠ ميل تقوم وسط صحور وقفار ، ومن هذه الهجرة يبتدىء التاريخ في المشرق والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية ، وهي السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد ، فترى أنه كان قد أصبح إذ ذاك شيخاً كبيراً وكان أصحابه يوتون واحداً بعد واحد ، ويخولون

أمامه مسلحاً وهراً ، وسديلاً قفراً ونخلة نكراء موحشة . فإذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجماً ومركباً وينفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنتيه ، فمبهات أن يجد بأوقات الأمل ، فيما يصدق به من عوايس الخطوب ، ويحيط به من كالحات الحزن والملمات ، وهكذا شأن كل إنسان في مثل هذه الأحوال .

الرد على الثنائين بأن الإسلام انتشر بالسيف :

وكانت نية محمد صلى الله عليه وآله أن ينشر دينه بالحسنة ، والموعظة الحسنة فقط ، فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية ، وعدم الأصغاء إلى صوت ضميره وصيحة ليه ، حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة - هزم ابن الصحرى على أن يدافع عن نفسه ، دفاع رجل ثم دفاع عربي ، ولسان حاله يقول : أما وقد أبعد قريش إلا الحرب ، فلينظروا أى فتيان هيجاء نحن ، وحقاً رأى فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق ، وشرعة الصدق ، وأبوا إلا تمادياً في ضلالهم يستبجحون الحريم ، ويهتكون الحرمات ، ويسلبون وينهبون ، ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها ، ويأتون كل لثم ومنكر ، وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة ، فأبوا إلا عتوا وطغيا ، فليجعل الأمر إذن إلى الحسام المهند ، والوشيع المقوم ، وإلى كل سرودة حديد ، وسابحة جرداء ، وكذلك قضى محمد ببيعة عمره وهى عشرين سنة أخرى في حرب وجهاد ، لم يسترح غمضة عين وكانت النتيجة ما تعلمون (١) ؟

(١) كلامه السابق يؤخذ بهند لأنه إن أنصف الإسلام في نقطة يسمى إليه فى أخرى .

واقعد قليل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فإذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه ، فشد ما أخطأوا وساروا ، فهم يقولون : ما كان الدين لينشر لولا السيف ، ولكن ما هو الذي أوجه السيف ؟ هو قوة ذلك الدين واهم حق ، والرأى الجديد أول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد ، فالذي يعتقده هو فرد — فرد ضد العالم أجمع . فإذا تناول هذا الفرد ميمفا و قام في وجه الدنيا والله يضيع . وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة ، حسبما تقهضه الحال . أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنب أن تستخدم السيف أحياناً ؟ وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون ، وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف ، أم باللسان أم بأية آلة أخرى .

لا ينصح إلا الصحيح :

فلنسمع الحقائى تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالغار . لندها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم ، وليس في طاقتها قط أن تفنى ما هو خير منها ، بل هو أحسن وأدنى ، فإنها حرب لا حكم فيها إلا الطبيعة ذاتها ، ونعم الحكم ما أعقل وما أقسط ، وما كان أعمق جذوراً في الحق ، وأذهب اعراقاً في الطبيعة ، فذلك هو الذى ترويه بعد الهرج والمرج والنوضاء والجلابة ، ناصياً زاكياً وحده .

#### عدل الطبيعة :

أقول الطبيعة أعدل حكم ، بل ، ما أعدل وما أرحم وما أحلم انك تأخذ حبوب القمح لنجعلها في بطن الأرض ، وريءا كانت هذه الحبوب مخلوقة بقشور وثمن وقمامة وتراب ، وسائر أصناف الأتذار ، ولكن لا بأس عليك من ذلك ، والحق الحبوب بجميع

ما يحاطها من القذى في جوف الأرض العادلة البارة فإنها لا تعطيك  
 إلا قهراً خالصاً نقياً فأما القذى فإنها تبعه في سكونه وتدفعه ولا تذكر  
 عنه كلمة وما هي إلا برهة حتى ترى الفمخ زاكياً ثم تذكر أنه سبائك الذهب  
 الإبريز ، والأرض السكرية قد طوت كشحاً على الأثداء وأغضت بل  
 أنها حوتها كذلك إلى أشياء نافعة ولم تشك منها شجراً ولا نصيباً ،  
 وهكذا الطبيعة في جميع شؤونها فهي حق لا باطل ، وهي عادلة وعادلة  
 ورحيمة حنون ، وهي لا تشترط في الشيء إلا أن يكون صادق الباب  
 حر الصميم ، فإذا كان كذلك حتمه وحرسه ، أو كان غير ذلك لم تقمه ولم  
 تحرسه ، فترى لكل شيء تهميمه الطبيعة روحاً من الحق ، ليس شأن  
 محبوب القمخ هذه والطبيعة هو شأن كل حقيقة كبرى ، جاءت إلى هذه  
 الدنيا أو تجيء فيما بعد ؟ أعني أن الحقيقة مزيج من حق وباطل ، نور  
 في ظلام ، وتجيئنا الحقائق في أبواب من القضايا المنطقية والنظريات  
 العلمية عن الكائنات . لا يمكن أن تكون تامة صحيحة صائبة ، ثم لا بد  
 منه أن يجيء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها وجورها ، فتموت ونذهب .  
 نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى أبداً ويتخذ  
 ثوباً أطهر ، وبدناً أشرف ، وما يزال ينتقل من الأبواب والأبدان  
 من حسن إلى أحسن وجيد إلى أجود ، مسنة الطبيعة التي لا تتبدل ،  
 نعم لأن جوهر الحقيقة الكريم حتى لا يموت وإنسا النقط المممة  
 والامر الوحيد الذي يعرض في بحكمة الطبيعة ويجلس قضائها ، هو هل  
 هذا الروح حق وصوت من أعماق الطبيعة ؟ وليس بهم عند الطبيعة  
 ما نسميه نفاث الشيء أو عدم ثقائه وليس هو بالسؤال الثماني ، ليس الأمر  
 المهم عند الطبيعة حينما تقدم إليها أنت لتصدر حكماً فيك ، هو أفليك  
 أقنار وأكدار أم لا ؟ وإنما هو أفليك جوهر حق وروح صدق أم لا ؟



أو بمجارة تشييدية ليس السؤال المهم عند الطبيعة هو أفيك قشور أم لا ؟ بل أفيك قح ؟ أيقول بعض الناس إنه نقى ، لئى أقول له : نعم نقى — نقى جداً ولكنك قشر — ولكنك باطل وأكذوبة وزور وثوب بلا روح ومجرد اصطلاح وعادة ، وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة ، والواقع أنك لا نقى ولا غير نقى ، وإنما أنت لا شيء ، والطبيعة لا تعرفك وأنها منك براء .

قضاء محمد على وثنية العرب والمقائد الفاشية فى تلك الأيام

واقتر محمد بن وراء أصنام العرب الكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ، ورواياتهم وبراهينهم ، وهزاعهم وقضايهم — انظر ابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق ، وعينه المتوقدة الجليلة إلى لباب الأمر وصميمه فقال فى نفسه : الوثنية باطل ، وهذه الأصنام التى تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب ، أخشاب لا تضر ولا تنفع ، وهى منكر فطيع وكفر لو تدلون ، إنما الحق أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خلقكم وبه حياتكم وموتكم ، وهو أرف بكم منكم ، وما أصابكم من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون .

ولن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية الجدير أن يكون حقاً وجدير أن يصدق به ، وأن ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذى للإنسان أن يؤمن به ، وهذا الشيء هو روح جميع الأديان — روح تلبس أثواباً مختلفة وأثواباً متعددة ، وهى فى الحقيقة شيء واحد ، واتباع هذه الروح يصبح الإنسان اماماً كبيراً لهذا المعبد الأكبر : الكون جاريماً على قواعد الخلق ، تابعاً لقوانينه لا يحاول عبثاً أن يقاومها ويدافعها ، ولم أعرف قط تعريفاً لواجب

أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب في السير على منهاج الدنيا ، فإن الفلاح في ذلك ( إذا كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح ) .  
 وسواء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدل وتخابط بالحجج الجائرة وماذا أفاد ذلك ؟ وماذا أمرو ؟ أما أن الأهم ليس صحة ترتيب التقنيات المنطقية وحسن إنتاجها وإنما هو أن خلاق الله وأبناء آدم يمتدنون تلك الحقائق الكبرى . ففسد بناء الإسلام على تلك المال السكاذبة والنحل الباطلة ما يتلعمها وحق له أن يتلعمها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة . وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب ، وكل ما لم يكن بحق ، فإنما سقط ميت أكلته نار الإسلام . فذهب والنار لم تذهب .

### القرآن وإعجازه

أما القرآن فإن فرط إعجاب المسلمين به وقولهم بإعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة . هذا وأن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة (١) وحسن الصياغة ولذلك لا عجب إذا قلت أن الأوربي يجد في قراءة القرآن أكبر عناء ، فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد ، لا يزال يقطع في صفحته قفازاً من القول الممل المتعب ، ويحمل على ذهنه هضاباً وجبالاً من الكلام ، لكي يمتزج في خلال ذلك على كلمة مفيدة ، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملائمة ، ولأن لا ترجمه ذهبت بحسنه ورواقه ، فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من النجيل ما لم يعطه أتمنى للنصارى الإنجيلهم ، وما جرح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع في شؤون الحياة .

(١) الأصح أن يقال بلاغته الإلهية .

ومسائلها . والوحى المنزل من السماء هدى للناس وسراجاً منيراً ،  
 يضيء لهم سبيل العيش ويهديهم صراطاً مستقيماً ، ومصدر أحكام  
 النضافة ، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستئذنة به في غياب  
 الحياة ، وفي بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة ،  
 وتقاسمه ثلاثون قارئاً على التوالي ، وكذلك ما يروح هذا الكتاب يرون  
 صوته في أذان الآلاف من خلف الله وفي قلوبهم اثني عشر فرناً في كل  
 آن ولحظة ، ويقال إن من النقصاء من قرأه سبعين ألف مرة ١١

### الإخلاص من فضائل القرآن :

إذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، وإذا خرجت  
 من القلب نفذت إلى القلب ، والقرآن خارج من فؤاد محمد (١) فهو جدير  
 أن يصل إلى أفئدة سامعيه وقارئييه . وقد زعم «براديه» وأمثاله أنه  
 طائفة من الأخاديع والنزاييق انفقها محمد لتكون أعداء له عما كان  
 يرتكب ويتترف ، وذرائع لبلوغ مظلومه وغاياته ١١ ولكنه قد آن  
 لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال ، فإن لامة كل من يرمى محمد  
 بمثل هذه الأكاذيب وما كان ذو نظر صادق يرى قط في القرآن مثل  
 ذلك الرأى الباطل . والقرآن لو تبصرون ما هو إلا جرات ذاكيات  
 قدفت بها نفس رجل (٢) كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال ،  
 في الخناوات الصامات ، وكأنه الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح  
 البصر ، وتزاحم في صدره حتى لا تسكد تجرد مخرجاً ، وقل ما نطق  
 به جانب ما كان يحيش بنفسه العظيمة القوية ، هذا وقد كان تدفع الوقائع

(١) و (٢) هذا تعبير خاطيء ، والصحيح أنه وحى من الله .

وتدق الخطوب يهمله عن رؤية القول ، وتنميق الكلام وبألمها من  
خطوب كانت تلجج به وتطير ، فليد كان في هذا السنين الثلاث  
والعشرين قطباً لرحى حوادث متلاحقات متصادمات وعالم كله هرج  
وفتن ومحن : حروب مع قریش والكفار ، ومخاصمات بين أصحابه (١) ،  
وهياج نفسه وثوراتها - كل ذلك جعله في نصب دائم وعناء مستمر فلم  
تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط ، وقد أتخيل روح عمدة الحداثة  
الفارسية وهي تتمهل طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب وتدوون  
بها دوامات الفسك وحتى إذا أسفرت لها بارقة رأى حسبته نوراً بهط عليها  
من السماء ، وكل هزم مقدس يهزم به يخاله جبريل وحيه (٢) . أيزعم  
[١] فاكون الجملة انه مشعوذ ومحتال ؟ كلا ثم كلا ! ما كان قط ذلك  
القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر يغور ويتأجج ، ايهكون قلب  
محتال ومشعوذ . لقد كانت حياته في نظره حقاً ، وهذا الكون حقيقة  
رائعة كبيرة .

### الإخلاص منشأ الفضائل :

والإخلاص المحض الصراح يظهر لي أنه فضيلة القرآن التي حببته  
إلى العربي وهي أول فضائل الكتاب أيا كان وآخرها وهي منشأ فضائل  
غيرها ، بل لا شيء غيرها - يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل أخرى ، من  
المعجب أن نرى في القرآن عرقاً من الشعر يجرى فيه من بدايته إلى نهايته  
ثم يتخلله نظرات نافذات - نظرات نبي وحكيم - أجل لقد كان لحمد

(١) لم يحدث بين الصحابة مخاصمات إلا كما يكون بين الإخوة  
والأحباب . (٢) بل كان ﷺ مؤيداً بهداية الله لا يخيل إليه .

في شؤون الحياة عين بصيرة ثم كان له قدرة عظيمة على أن يوقع  
في أذهاننا كل ما أبصره ذهنه (١) .

### القرآن محل أسرار الأمور:

أنا لا أحفل كثيراً بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد  
والتمجيد لأنى أرى لها في الإنجيل شبيهاً ، ولكنى شديد الإعجاب  
بالنظر الذى ينفذ إلى أسرار (٢) الأمور، فهذا أعظم ما يلذنى ويعجبنى،  
وهو ما أجده في القرآن ، وذلك كما قلت ففضل الله يؤتیه من يشاء .

### المعجزات في نظر الإسلام :

وكان محمد إذا سئل أن يأتى بمعجزة قال : حسبكم بالسكون معجزة  
انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله ؟ وآية هلى وجوده  
وعظمته ! هذه الأرض التى خلقها الله لكم ونهج لكم فيها سهلاً  
تسعون فى مناكبها وتأكلون من رزقه وهذا السحاب المسير فى الآفاق  
لا يدري من أين جاء وهو مستخر فى السماء كل سحابة كارد أسود ثم  
يسبح بمائه ويهبط ليهب أرضاً مواتاً ويخرج منها نباتاً ونخلاً  
وأعشاباً : أليس ذلك آية ؟ والأعنام خلقها لكم تحول الكلاء لهنأ  
وهى فخر لكم . والسفن - وكأبرأ ما يذكر السفن - كالجبال العظيمة  
المنحركة تنشر أجنحتها وتحفز فى سواها اليم ، لها حاد من الريح وبينما  
تسير إذا هى قد وقفت بغتة وقبض الله الريح ، معجزات والله  
كل هذه وأى معجزات بعدها تريدون ؟ أليس أتم معجزات الله  
بكنتم صغاراً وقبل ذلك لم تكونوا أبداً ثم لكم جمال وقوة وعقل ، ثم

(١) هو يرى أن فى القرآن شراً ، وهذا قول باطل : (٢) وما علمناه  
الشعر وما ينبغي له . (٢) ليس نظراً وإنما هو كلام الله تعالى .

وهبكم الرحمة أشرف الصفات ، وتزعمون ويأتونكم المشيب وتزعمون  
وتزعم عظامكم وتموتون فتصيحوا غير موجودين دشم وهبكم الرحمة ،  
لقد أدعشتني جداً هذه الجمله ؛ فإن الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة  
فإذا كان يكون أمرهم هذه من محمد نظرة نافذة إلى ابواب الحقيقة .  
وكذلك أرى في محمد دلائل شاعرية كبرى وآيات على أشرف  
الحامد وأكرم الخصال . وأتبع فيه عقلاً واجماً عظيماً وعيناً بصيرة  
وفؤاداً صادقاً ورجلاً قوياً عبقرياً ولو شاء لسكان شاعراً فحلاً أو فارساً  
بهلاً ، أو ملكاً جليلاً ، أو أى صنف من أصناف الأبطال . نعم  
لقد كان العالم في نظره معجزة أى معجزة . وكان يرى فيه كل ما كان  
يراه أحاطم المفكرين حتى أهم الشمال المتوحشة ، وهو أن هذا  
الكون الصواب المسمى إنما هو في الحقيقة لا شيء إنما هو  
آية على وجود الله منظورة ملبوسة وهو ظل علقه الله على مصدر  
الفضاء لا غير . وكان يقول : هذه الجبال الشاهقات ستجمل وتذوب  
مثل السحاب وتنفى ، وكان يقول : الجبال أوئاد الأرض وإنما ستنفى  
كذلك يوم القيامة وأن الأرض في ذلك اليوم العظيم تنصدع وتنفتت  
وتذهب في الفضاء هباءً منثوراً ، فتندم ، وكان لا يزال واضحا  
الذي عليه سلطان الله على كل شيء وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ، ورواق  
باهر ، وهول عظيم ، هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة ، وهذا  
ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ، ولا يرونه شيئاً مقدساً ، بل  
لا يرونه شيئاً واحداً وإنما هي أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمشقال ،  
وتستعمل في تسيير السفن البخارية ، فصرعان ما تنسينا السكياويات

والحسابيات ما يمكن في الكائنات من سر الله ، وما أخش ذلك النسيان عاراً ، وأكبر هذه الغفلة إنما ، وإذا فسينا ذلك فأى الأمور يستحق الذكر إذن ، فعظم العلوم أشياء مميّنة خاوية بالية - بقلة ذابلة ، نعم وما أحسب العلم لولا ذلك إلا خشباً يابساً ميتاً وليس هو بالشجرة الدائمة ، ولا بالعاقبة الكشيغة الملتفة ، القى لا تبرح تمدك بالخشب إثر الخشب فيما تمدك وتعطيك ، ولن يبعد المرء السبيل إلى العلم حتى يحمده أولاً إلى العبادة ، أعنى أنه لا علم إلا لمن عبده ، وإلا فما العلم إلا شدة غفلة كاذبة ، وبقلة كما قلت ذابلة .

#### الرد على متهمى الاسلام بشهوائيه :

وقد قيل وكتب كثير آ في شهوائية الدين الإسلامى ، وأرى كل ما قيل وكتب جوراً وظلماً ، فإن الذى أباحه محمد بما محرّمه المسيحية لم يمكن من تلقاء نفسه ، إنما كان جارياً متبعاً لى العرب من قديم الأزل ، وقد قلل محمد هذه الأشياء مجرده ، وجعل عليها من الحدود ما كان فى إمكانه أن يجعله ، والدين المحمدي بعد ذلك ليس بالسمل ولا بالمين ، وكيف ومعه كل ما تعلمون من الصوم والوضوء ، والقواعد الصعبة الشديدة ، وإقامة الصلاة خمساً فى اليوم ، والحرمات من الخمر ١١ . وليس كما يزعمون : كان نجاح الإسلام وقبول الناس إياه لسهولة ، لأنه من أخش الطعن على بنى آدم والقدح فى أعراضهم ، أن يتهموا بأن الباعث لهم على محاولة الجلائل وإتيان الجسائم ، هو طاب الراحة ، واللذة التماس الحلو من كل صنف فى الدنيا والآخرة إلا أن أحسن الآدميين

لا يخلو من شيء من العظمة والجلال ، فالجندی الجاهل الجلف الذى  
يؤجر يمينه وروحه فى الحروب بأجر ينحس ، له مع ذلك « شرف » ،  
يخالف به فتراه لا يبرح يقول : لأفعلن ذلك وشرفى ، وليست أمنية  
أحققر الآدميين هى أن يأكل الحلوى ، بل أن يأتى عملاً شريفاً وفعلًا  
محموداً ، ويثبت للناس أنه رجل فاضل كريم . ليعمد أيكم إلى أبلى  
إنسان فيريه سبيل المكرمات والمحامد ، فإذا هو قد تأجج قلبه حماساً  
واقعدت نفسه غيرة ، وصار فى الحال بهلاً . وما أظلم الذين يتهمون  
الإنسان بهولهم إنه ميل بفطرته إلى الراحة ، وإنه يستهوى بالترف  
ويستغوى باللذة ، إنما مغريات الإنسان وجاذباته هى الأحوال  
والصعائب والاستشهاد والقتل ، أقبح ما بنفس المرء من زناد الفضل ،  
تلك ناراً تخرق سائر ما فيه من الخسائس والنقائص . وما كان قط  
اعتناق الناس لدين من الأديان لما يرجون من متاع ولذة ، بل لما يثور  
فى قلوبهم من دراعى الشرف والعظمة .

#### براعة محمد من الشهوات وتواضعه وتقشفه :

وما كان محمد أخا شهوات ، برغم ما اتهم به ظالموا وعدوانا ،  
وشدة ما فجور ونفلى . إذا حسبناه رجلاً شهوياً ، لاهم له إلا قضاء  
مآربه من الملاذ ، كلا ، فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت ، لقد  
كان زاهداً متقشفاً فى مسكنه ، وما كله ، ومشربه ، وملبسه ، ومائر  
أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تتابعته الشهور  
ولم توقد بداره نار ، وانهم ليذكرون - ونعم ما يذكرون - أنه كان



يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فخبذا محمد  
من رجل خشن اللباس ، خشن الطعام ، يجتهد في الله قائم النهار ، ساهر  
الليل ، داثبا في أشد دين الله ، غير طامع إلى ما يطمع لآله أصاغر  
الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة  
كيفية ما كانت ، رجل عظيم وربكم وإلا فما كاف ملاقيا من أولئك  
العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً وإكباراً وإعظاماً ، وما كان يسكنه  
أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقانه ، ثلاثاً وعشرين حجة وهم ملتفون  
به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله ، لقد كان في هؤلاء العرب جفاء ،  
وغاظة ، وبادرة ، وعجرفة ، وكانوا حماة الأنوف ، أباة الضيم ،  
وعرو المقادة صعاب الشكيمة ، فن قدر على رياضتهم ، وتذليل جانبهم  
حتى رضخوا له واستقادوا فداكم وأيم الله بطل كبير ، ولولا ما  
أبصروا فيه من آيات النبيل والفضل ، لما خضعوا له ولا أذعنوا ،  
وكيف وقد كانوا أطوع له منه بناته .

وظي أنه لو كان أتبع لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه  
وصولجانه لما كان مصيباً من طاعتهم مقدار ما ناله محمد ، في ثوبه  
المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة ، وهكذا تكون الأبطال .  
مكرمات محمد وأخلاقه :

وكانت آخر كلماته تسبيحاً وصلاة - صوت فؤاديه بين الرجاء  
والخوف ، أن يصعد إلى ربه ، ولا يحسب أن شدة تديفه أذرت بفضل  
كلا بل زادته فضلاً ، وقد يروى عنه مكرمات عالية ، منها قوله حين  
رزي غلامه (١) :

(١) أي حين فقد ابنه إبراهيم .

« العين تدمع والقلب يوجع ، ولا تقول ما يسخط الرب » .  
ولما استشهد مولاه زيد ابن حارثة في غزوة « مؤتة » قال محمد :  
« لقد جاهد زيد في الله حق جهاده ، وقد اتى الله اليوم فلا بأس  
عليه » . ولما سكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكي على جثة أبيها - وجدت  
الرجل السكبل الذي دبّ في رأسه المشيب يذوب قلبه دمعاً فقالت :  
« ماذا أرى » ؟ قال : « صديقاً يبكي صديقه » .

مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا في محمد أخا الإنسانية  
الرحيم ، أخانا جميعاً الرؤوف الشفيق ، وابن أمنا الأولى وأبينا الأول .

#### براعة محمد من الرياء والتصنع :

ولمّا لأحب محمداً لبراعة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان  
ابن القنفذ هذا رجلاً مستقلاً للرأي ، لا يعول إلا على نفسه ، ولا يذعن  
ما ليس فيه ، ولم يك متسكراً ولا سكتاً لم يكن ذليلاً ضرعاً . فهو قائم  
في ثوبه المرقع كما أوجده الله ، وكما أراد ، يخاطب بقوله الحر المبين ،  
قباصرة الروم وأكاسرة العجم ، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه  
الحياة وللحياة الآخرة ، وكان يعرف لنفسه قدرها ، ولم تغفل الحروب  
الشديدة التي وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ، ولما سكتها لم تنل  
كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران . وكان محمد لا يعتذر من الأولى  
ولا يفتخر بالثانية ، إذ كان يراها من وحى وجدانه (١) وأوامر  
شعوره ، ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين .

---

(١) بل هي من وحى إلهي لتكون سنماً من بعده .

### ما كان محمد بعابث :

وكان رجلاً ماهض العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد وطالما كان يذكر يوم «تبوك» إذا أبى رجاله السير إلى موطن القتال ، واحتجوا بأنه أوان الحصيد<sup>(١)</sup> ، وبالحر ، فقال لهم: الحصيد لأنه لا يابث إلا يوماً فإذا اتزودون للأخرة ؟ والحر ؟ نعم لأنه حر ولكن جهنم أشد حرّاً ، وربما خرج بعض كلامه تهكماً وسخرية ، إذ يقول للكفار : ستجزون يوم القيامة على أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبغضون مثقال ذرة . وما كان محمد بعابث قط ، ولا شاب شيئاً من قوله شائبة لعب وطو بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسألة فناء وبقاء ، ولم يك منه إزاهها إلا الإخلاص الشديد ، والجد المر .

### التلاعب بالحقائق من أفظح الجرائم :

فأما التلاعب بالأقوال والقضايا المختلفة، والعبث بالحقائق، فما كان من شأنه قط . وذلك عندهى أفظح الجرائم ، إذ ليس هو لارقدة القلب ووسن العين عن الحقائق ، وعيشة المرء في مظاهر كاذبة ، وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الإنسان ، هو أن جميع أقواله وأعماله أكاذيب ، بل أنه هو نفسه أكذوبة ، وأرى نخصلة المروءة والشرف - شعاع الله متضائلاً في مثل ذلك الرجل مضطرباً بين عوالم الحياة والموت - فهو رجل كاذب ، لا أنكر أنه مصقول اللسان ، مهذب حواشي الكلام ، محترم في بعض الأزمان والأمكنة ؛ لا تؤذيك بادرته ؛ لين المس رقيق اللبس ؛ لكنه كحوض الكربون ، تراه على لطفه سماً نقيعاً وموتاً ذريعاً<sup>(٢)</sup>

(١) القائلون لذلك هم المنافقون لاصحابة الرسول ﷺ .

(٢) من قوله «إذ ليس هو إلا» إلى «موتاً ذريعاً» وصف للتلاعب بالحقائق .

## المساواة بين الناس من خلال الإسلام :

وفي الإسلام نخلة أرواما من أشرف الخلال وأجلها وهي التسوية بين الناس ، وهذا يدل على أصدق النظر ، وأصوب الرأي (١) . فنفوس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض ، والناس في الإسلام سواء .

## الزكاة في الإسلام :

والإسلام لا يكتفى بحمل الصدقة سدة محبوبة ؛ بل يحملها فرضا حتما على كل مسلم (٢) ؛ وقاعدة من قواعد الإسلام ، ثم يقدرها بالنسبة إلى روة الرجل ، فتكون جزء من أربعين من الثروة (٣) ؛ تعطى إلى الفقراء والمساكين والمكويين ، جميل والله كل هذا ، وما هو إلا صوت الإنسانية - صوت الرحمة والإخاء والمساواة ؛ يصيح من فؤاد ذلك الرجل (٤) - ابن الفقار والصعراء .

## الجنة والنار في نظر القرآن :

وينكر البعض تغلب الحسية المادية على جنة محمد وناره ؛ فأقول إن الغيب في ذلك على الشراح والمفسرين لا على ما جاء في الكتاب ، فإن القرآن قد أقسَّ جدًّا من إسناد الحسيات والماديات إلى الجنة والنار ، وكل ما فيه من هذا الشأن إيمان وتلييح ، وإنما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ، ولا متعة شهوية حتى ألحقوها بالجنة ، (١) ليس في الإسلام رأى ، إنما هو مستمد من الكتاب والسنة والإجماع والقياس عليها .

(٢) هي فرض على القادر من المسلمين (٣) هذا تعميم غير دقيق ، ولكن للزكاة أحكام حسب نوع المال (٤) بل هو من عند الله .

ولا هذا با بدنيا وألما جسمانيا، حتى أسفدوه إلى النار (١)، ثم لا تنسوا أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانيا إذ قل: ﴿وقال لهم عن قتلها سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين﴾ والاسلام والآمن هما في نظر كل حائل أقصى أمانى المرء وأعظم الملاذ قاطبة ، الشيء الذى عبثا يتلمسه الإنسان فى الحياة الدنيا ، وقال أيضا ﴿وزعنا ما فى صدورهم من غل﴾ إخوانا على سرور متقابلين ، وأى رذيلة أتعجب من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات ، وأى شيء أهنا من التآلف والتصافى ؟  
الصيام فى الإسلام :

وأى دليل أشهر بهرارة الإسلام من الميل إلى الملاذ من شهر رمضان الذى تلجم فيه الشهوات ، وتزجر النفس عن غاياتها ، وتذع عن آربها وهذا هو مستهى العقل والحزم ، فإن مباشرة الذات ليس بالمفكر ، وإنما المنكر هو أن تذل النفس لجبار الشهوات ، وتشقاق لحادى الأوطار والرجبات ، ولعل أجدد الحصال وأشرف المكارم ، هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان ، وأن يجعل من لذاته لاسلاسل وأغلالا تعذيبه وتعناص عليه ، إذا هم أن يصدعها ، بل حايها وزخارف متى شاء فلا شيء أهون عليه من خلعها ، ولا أسهل من نزعها . وكذلك أمر رمضان سواء أكان مقصوداً من عدم (٢) معيناً ، أو كان وحى الغريزة وإلهاماً فطرياً ، فهو والله نعم الأمر .

الجنة والنار رمز الحقيقة الأبدية :

ويمكننا القول دلى كل حال بأن الجنة والنار هاتين هما رمز حقيقة

---

(١) كلامه ليس صحيحاً لأن التفسير أصولاً هند المسلمين لم يطالع عليها  
 (٢) بل هو وحى الله .

أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثلها صادفت في القرآن ، وماذا ترون تلك الجنة وملاذها واهوائه النار وعذابها ، وقيام الساعة التي يقول عنها : ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ﴾ ماذا ترون كل هذه الأظلال تمثل في خيال الذي (١) الشاعر للحقيقة الروحية الكبرى رأس الحقائق أعني الواجب ، وجسامة أمره ، لئلا كان هذا الرجل يرى الحياة أمراً جسيماً ويرى لكل عمل إنساني مهما حقّر خطأه كبرى ، فما كان من سعى فله من السوء نتيجة أبدية ، وما كان صالحاً فله من الصلاح ثمرة سرمدية وأن المرء قد يسمو بصالحاته إلى أعلى عالمين ، ويهبط بهوبقاته إلى أسفل سافلين ، وإن على عصره التفسير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية . كل ذلك كان يلتهب في روح ذلك الرجل القفرى ، كأنما قد نقش شمت بأحرف النار ، وكل ذلك قد حاول في أشد إخلاص ، وأحد جد ، أن يخرج للناس ويصوره لهم ، فأخرجهم وصوره في صورة تلكم النار والجنة ، وأى ثوب لبسته هذه الحقيقة ، وأى قالب صبغت فيه فلا تزال أول الحقائق مقدسة في أى أسلوب وأى صورة .

#### منزلة الإسلام في قلوب المسلمين :

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب (١) من اللصرائية ، وفيه للمبصرين أشرف معاني الروحية وأعلاها ، فأعرفوا له قدره ولا ينخسوه حقّه ، ولقد مضى هابه مشتبان وألف عام وهو الدين القويم ، والصراط المستقيم للنس العالم ، وما زال فوق ذلك ديناً يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم (١) ما يقوله المؤلف خطأ وباطل ولا أساس له .

حولا أحسب أن أمة من النصارى اعتمدوا بدينهم اعتصام المسلمين  
 بإسلامهم - إذ يوقنون به كل اليقين ، ويواجهون به الدهر والأبد ،  
 وسينادى الحارس الليلة في شوارع القاهرة أحد المارة ( من السائر ؟ )  
 فيجيبه السائر ( لا إله إلا الله ) . وأن كلمة التوحيد والتسكير والنهال  
 لترن آناه الليل وأطراف النهار ، في أرواح تلك الملايين الكثيفة ،  
 وأن الفقهاء ذوى الخبرة في الله والنفاى في حبه ، أيا تون شعوب الوثنية  
 في الهند والصين والمالاي ، فيهدمون أضرالهم ، ويشيدون مكانها  
 قواع الإسلام ، ونعم ما يفعلون .

### تأثير الإسلام على العرب وفضله عليهم :

واقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وأحيا  
 به من العرب أمة هامدة وأرضاً هامدة ، وهل كانت إلا فئة من جملة  
 الأعراب ، خاملة فقيرة تجوب الغلاة ، منذ بدء العالم ، لا يسمع لها  
 صوت ولا تحس منها حركة . فأرسل الله طم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة  
 من قبله ، فإذا الخول قد استحال شهرة ، والغمرض نباهة ، والضعفة رفعة ،  
 والضعف قوة ، والبشرارة حريقا ، وسمع نوره الانحاء وعم صنوه  
 الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجندوب ، والمشرق بالمغرب ، وما هو  
 إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند  
 ورجل في الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقا عديدة ، ودهورا  
 مدينة بنور الفضل والنبيل ، والمروءة والبأس ، والنجدة . وروى  
 الحق والهدى على نصف المعمورة ، وكذلك الإيمان عظيم وهو مبعث

الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة رقى في درج الفضل ، وتعميح  
إلى ذرى المجد، ما دام مذهبها اليقين ومنهاجها الإيمان ، الستم ترون  
في حالة أولئك الاعراب ومحمد وعصرهم ، كأنما قد وقعت من  
السماء شرارة على تلك الرمال، التي كان لا ييهتر بها فضل، ولا يرجى  
فيها خير ، فإذا هي بارود سريع الانفجار ، وما هي برمل ديت ،  
وإذا هي قد تآججت واشتعلت ، وأقصمت نارها بين فرناطة ودطى .  
واطالما قلت إن الرجل العظيم كالشهاب من السماء ، وسائر الناس  
في انتظاره كالخطب ، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا .

[ تم الكتاب ]





الطبعة الثانية  
١٤١٣ هـ ~ ١٩٩٣ م  
ص  
١٠٠